شعر الاحتضار حتّى نهاية العصر العباسي الأول (٣٣٤هـ)
دراسة في شعر اللحظات الأخيرة في حياة الشعراء

أ.م.د. حســام داود خضر الإِربلِّي *

الخلاصة:

شعر الإحتضار، آخر شعر الرجل يقوله بداهة أو إرتجالا في أثنـــاء دخوله سياق الموت فيما يمرّ عليه، أو ينشغل به لحظته، قبل خروج الروح بمدّة وجيزة قد لا تتعدّى الدقائق، دون تقيّة أو ملق أو تكسُّب، ربما كان يمارسها في حياته اليومية، إضطرارا أو تحقيقا لمنفعة.

والبحث يتناول معنى الإحتضار، مُقدِّما مادته بثلاثة مباحث، هي:

الأول: ما قيل في قبول الموت

الثاني: ما قيل في طلب الموت

الثالث: ما قيل في تجاهل الموت

ثم يدرس هذا الشعر، أسلوبا وألفاظا ومعاني وأفكارا وإيقاعا وصورا بلاغية.

ولتحقيق ذلك يعتمد مصادر رصينة ومراجع قيمة في الأدب والترجمـــــة والتاريخ واللغة، بلغ في مجموعها (٥٥) مصدرا ومرجعا.

المقدّمة:

فكرة البحث في منظومات البداهة والارتجال تراودني منذ مدّة غير قصيرة، وقد أنجزتُ فيها بحثاً في الاجازة في الشعر العباسي، نشرته في كتاب بثلاثين ومئة صفحة، وأعود الآن إلى بحث منظومة أخرى من هذه المنظومات، هي شعر الاحتضار: شعر اللحظات الأخيرة في حياة الشعراء، وأعني به شعر الرجل، يقولـه وهـو فـي سياق المـوت، مـن خـلال المـدّة مـن أول الـشعر العربـي حتـى نهايـة العـصر العباسـي الأول(٣٣٤هـ).

وقد جهدتُ الجهد لتقديم بحث رشيق يتناول شعر الاحتضار، وفي علمي أنّ ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد (ت٢٨١هـ) صنّف كتاباً في المحتضرين، جمع فيه كثيراً من الأقوال والوصايا والشعر ولكنّ منهجه فيه استعراض النماذج ليس إلا كسائر مصنّفي الأدب القدامى، وسار على نهجه ابن زبر الربعي، أبو سليمان محمد بن عبد الله (ت٣٧٩هـ). ولكن ليس في علمي من بحث فيه أو ذهب إليه في دراسة أو مقال، لا في قديم الأدب العربي ولا في حديثه، فوجدته جديراً بالتناول والبحث من خلال دراسة نماذج من العصور حتى نهاية مدّة البحث ووضعها في متناول من يستهويه الأمر، أو يذهب إليه لينجز أعمق وأفضل.

ولتحقيق ذلك وضعت معنى الاحتضار في المتناول، بالرجوع إلى المعاجم اللغوية، مُقدّماً إياه بنماذج تقرّب المادة إلى الذهن، وتفتح الأبواب على تعريف شامل.

ثمّ عبّدت طريقاً إلى هذا الشعر بثلاثة مباحث، أولها: ما قيل في قبول الموت، وثانيها ما قيل في طلبه، والثالث ما قيل في تجاهله، معزّزة بنماذج مختارة لم أتوانَ في التعريف بقائلها حدّ الحاجة، وعند الحاجة. والدخول إلى رأس هذا القائل لاستيعاب ما يقوله في سياق موته.

ودرستُ هذا الشعر: أسلوباً وألفاظاً ومعاني وأفكاراً وإيقاعاً وصوراً بلاغية ثم ختمته بخاتمة ذكرتُ فيها بما نفذته، وسرتُ عليه.

* قسم اللغة العربية /كلية التربية للبنات/ جامعة بغداد.

ولتحقيق ذلك اعتمدت مصادر رصينة في الأدب والترجمة والتاريخ واللغة, وآنستُ بمراجع قيّمة, متوخيّاً التوفيق من الله أولاً, والقبول من الباحثين والدارسين والمهتمين بالأمر ثانياً. ولا يخامرني أدنى شك في أنّ فوقَ كلّ ذي علمٍ عليم.

التمهيد :

ليس في شعر الاحتضار متعة, يُقدّمها المُحتضر لمتلقيه كما يقدمها المسيّب بن علس (ت ٤٨ ق. م) في قوله يمدح القعقاع بن معبد بن زرارة: [من الكامل]

فلأهدينّ مع الرياح قصيدةً ... منّي مغلغلةً إلى القعقاعِ
أنت الذي زعمتْ معدُّ أنهُ ... أهلُ التكرّم والندى والباعِ [١]

وليس فيه ملق كملق زهير بن أبي سلمى (جاهلي لم يدرك الاسلام): [من الطويل]

تراهُ إذا ما جئتَهُ متهلّلاً ... كأنّك تُعطيه الذي أنتَ سائله [٢]

وليس فيه بوق كبوق دريد بن الصمة (مخضرم، قُتل مع المشركين): [من الطويل]

وهل أنا إلا من غزيّة إنْ غَوَتْ ... غويتُ، وإنْ ترشُدْ غزيّةٌ أرشدِ [٣]

وليس فيه فخر كفخر الحطيئة (ت نحو ٣٠هـ): [من البسيط]

قومٌ إذا عقدوا عقداً لجارهمُ ... شدّوا العِناجَ وشدّوا فوقه الكَرَبا
قومٌ همُ الأنفُ، والأذنابُ غيرُهُمُ ... ومَن يُسوّي بأنفِ الناقةِ الذَّنَبا [٤]

وليس فيه تكسّب، أو سبيل إلى التكسّب كما في قول أبي دُلامة يحكي عن إمرأته: [من البسيط]

إذْهبْ تبغَّ لنا نخلاً ومُزدرعاً ... كما لجيراننا نخلٌ ومُزدرعُ
إيتِ الخليفةَ فاخدعهُ بمسألةٍ ... إنّ الخليفةَ للسؤال ينخدعُ [٥]

ولا فيه غزل كغزل العباس بن الأحنف (ت ١٩٤هـ): [من البسيط]

ما أسمجَ الناسَ في عيني وأقبحهمْ ... إذا نظرتُ فلم أبصرك في الناسِ
حتّى متى كبدي حرّى مُعطّشةٌ ... ولا يلينُ بشيءٍ قلبُك القاسي [٦]

ولا فيه توثيق كتوثيق أبي تمام (ت٢٣١هـ) فتح عمورية: [من البسيط]

فتحٌ تفتّحُ أبوابُ السماءِ لهُ ... وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ
يا يومَ وقعةِ عمُوريّةَ انصرفتْ ... عنكَ المُنى حُفّلاً معسولةَ الحلبِ [٧]

أو تعليم كتعليم ابن المُعتز (ت٢٩٦هـ) في مزدوجته: [من الرجز]

ثمّ انقضى أمرُ الامامِ المعتضدْ ... وكلُّ عُمْرٍ فإلى يومٍ نفدْ
وماتَ بعدَ مائتين قد خلتْ ... في عامِ تسعٍ وثمانين مضتْ
والحيُّ منقادٌ إلى الفناءِ ... والرزقُ لا بُدَّ إلى انتهاءِ [٨]

شعر الاحتضار خالٍ من كلّ هذا وذاك. وإذا كان هكذا، فبماذا يقوم إذن ؟ وما معنى الاحتضار ؟ وكيفَ نقدّم شعر الاحتضار أساساً ؟

الاحتضار هو نزول الموت بالانسان. قال الزمخشري (ت٥٨٣هـ): ((حُضر المريضُ واحتضر بمعنى حضره الموت.قال الشمّاخ:

فأوردها معاً ماءً رواءً ... عليه الموتُ يُحتضرُ احتضارا)) [٩]

وقال ابن منظور (ت٧١١هـ): ((أُحتضر فلان: إذا دنا موته.))(١٠)
وذكر الزبيدي (ت١٠٢٥هـ) أنّه من المجاز، وقال: ((أُحتضر المريضُ وحُضر (مبنياً للمفعول) إذا حضره الموت، ونزل به.))(١١)
وفي القرآن الكريم: ((كتب عليكم إذا حضر أحَدَكُم الموتُ إنْ ترك خيراً الوصيّة للوالدين والأقربين بالمعروف حقّاً على المتقين))(١٢). وفيه أيضاً: ((ثمّ هو يومَ القيامةِ من المحضرين.))(١٣)
وفي الحديث الشريف: ((إذا حُضِر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بجريرة بيضاء))(١٤).
والاحتضار قد يقع حتف الأنف بموت أبيض، يرفضه المُحتضر المجاهد بوصفه موتاً غير جدير به ويطلبه المحتضر خالي الوفاض بوصفه موتاً رحيماً. وقد يقع قتلاً بموت أحمر يتفهمه المجاهد ويرفضه الخالي وكلا الاحتضارين نزول الموت بصاحبه. وإن كان نزول الموت احتضاراً، فما شعر الاحتضار الذي يقال في أثنائه ؟

شعر الاحتضار :

شعر الاحتضار، آخر شعر الرجل يقوله بداهة أو ارتجالاً في أثناء دخوله سياق الموت فيما يمرُّ عليه، أو ينشغل به لحظته، قبل خروج الروح بمدة وجيزة قد لا تتعدى الدقائق أو الهنيهات، دون تقيّة أو ملق أو تكسب، ربما كان يمارسها في حياته اليومية، اضطراراً أو تحقيقاً لمنفعة.
وبهذا لا يعدّ من شعر الاحتضار، الشعرُ الذي يقوله الرجل في أثناء انتظار الموت ما لم يدخل في سياقه أو يتأكد الموت، ولا الشعر الذي يقوله الرجل في أثناء مرضه الذي يذهب به، أو أمام عُواده، خوف الوقوع في التّروي الذي يُذهب عنه شرط البداهة والارتجال. وعليها لا يدخل قول جرير (ت١١١هـ) لمّا دخل عليه نفر من قريش في علّته التي مات فيها: [من البسيط]

نفسي الفداءُ لقومٍ زيّنوا حسبي	وإنْ مرضتُ فهُم أهلي وعوّادي
لو خِفتُ ليثاً أبا شبلين ذا لبدٍ	ما أسلموني لليثِ الغابةِ العادي
إنْ تجرِ طيرٌ بأمرٍ فيه عافيةٌ	أو بالفراقِ، فقد أحسنتمُ زادي (١٥)

في شعر الاحتضار، ولا قول أبي حفص الشطرنجي، شاعر علية بنت المهدي (ت٢١٠هـ) لمّا دخل عليه عبد الله بن الفضل، صديقه، يعوده في علّته: [من المتقارب]

نعى لكَ ظلَّ الشبابِ المشيبُ	ونادتْكَ باسم سواكَ الخطوبُ
فكنْ مُستعداً لداعي الفناءِ	فإنَّ الذي هو آتٍ قريب
ألسنا نرى شهواتِ النفوسِ تفنى	وتبقى عليها الذنوبُ
وقبلكَ داوى المريضَ الطبيبُ	فعاشَ المريضُ وماتَ الطبيبُ
يخافُ على نفسه من يتوبُ	فكيفَ ترى حالَ مَن لا يتوبُ (١٦)

على أنّ اغرب ما مرّ في شعر ما قبل الموت، شعر العجلاني، عبد الله بن عجلان، جاهلي عاشق، صاحب هند التي عشقها، الذي يقول فيها بيتين، ثمّ يمدّ بها صوته، ثمّ يخرّ ويموتُ. والبيتان: [من الطويل]

ألا إنّ هنداً أصبحتْ منكَ مَحرماً	وأصبحْتَ من أدنى حَمُوّتها حَما
فأصبحتَ كالمقمور جَفنِ سِلاحِهِ	تُقلّبُ بالكفّين قوساً وأسهُما

يقول ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ): ((وهذا الشعر يدل على أنّ هنداً كانت تحت العجلاني، فطلقها ثمّ تتبّعها نفسه.))(١٧)
وكذا نقل الابشيهي (ت٨٥٠هـ) عن بعضهم بغير سند: ((قال دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون في شبّاك وهو ينشد شعراً، فقلنا له: أحسنت، فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به، وقال: ألمثلي يقال

أحسنت ؟ ففررنا منه، فقال: أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أنشدكم فإنْ أنا أحسنت فقولوا: أحسنت، وإنْ أنا أسأت فقولوا: أسأت، فرجعنا إليه، فأنشد يقول: [من البسيط]

لمّا أناخوا قبيل الصبح عيسهمو ... وحمّلوها وسارتْ بالدمى الابلْ
وودعتْ ببنانٍ زانَه عنَمٌ ... ناديتُ: لا حمَّلْتُ رجلاكَ يا جملُ
يا حاديَ العيس عرِّج كي أودعهم ... يا حادي العِيس،في ترحالك الأجلُ
إنّي على العهد، لم أنقضْ مودتهم ... يا ليتَ شعري لطول البُعد ما فعلوا

فقلنا له: ماتوا، فقال: والله وأنا أموت، ثمّ شهق شهقة فإذا هو ميّت.))(١٨)

وفي عود إلى الاحتضار، لا بدّ من وقفة على الموت، قبل الذهاب فيه. فما الموتُ ؟ وكيف يستقبله المُحتضَر ؟

واقِع الحال إنّ الموت وفاة، وعندما يقال: توفاه الله، فبمعنى قبض روحه. (١٩) وذهب ابن منظور (ت٧١١هـ) إلى أنّ الموت هو السكون، بمعنى أنّ كلّ ما سكن فقد مات، أو هو النوم الثقيل، أو الخضوع للحق(٢٠).

ثم إنّ الموت اثنان: طبيعي يقع بالأجل المحتوم أو حين تنتهي دورة الانسان الحياتية، أو يستكمل الانسان حدّه الانساني كما تقول الفلاسفة.(٢١) وغير طبيعي يقع بتدخل خارجي اغتيالاً أو صعقاً أو فتكاً أو صبراً أ, ذبحاً أو وأداً أو إلى ما ذلك.(٢٢)

ومهما يكن فالموت واحد، ولكن استقباله ليس هكذا بأيّ حال. فمن المحتضرين من يتلقاه قابلاً راضياً، مؤمناً بقضاء الله وقدره، ومنهم من يطلبه لأنّه راحة للنفوس، ومنهم من يرفضه لأنه ينهيه وينهي العالم فيه.

أولاً: قبول الموت

والذي يقبله واحد من اثنين، فإمّا هو قابل به، لأنّه أمر طبيعي، يبدأ لينتهي، وكأنّ الانسان ينهي به دورته الانسانية التي لا بدّ منها. وإمّا قابل به، لأنّه حُكمُ الله فيه، لا بدّ من الرضوخ والاستعداد للقاء الرب الغفور.

فمن الأول ما قاله لبيد بن ربيعة (ت نحو ٤٠هـ) يخاطب ابنتيه، لمّا حضرته الوفاة في الثلاثين ومئة السنة: [من الطويل]

تمنّى ابنتاي أنْ يعيشَ أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مضرْ
فقوما فقولا بالذي قد علمتما ... ولا تَخْمشا وجْهاً ولا تحلقا شعرْ
وقولا هو المرءُ الذي لا خليله ... أضاع، ولا خان الصديقَ ولا غدرْ
إلى الحول ثمّ اسمُ السلام عليكما ... ومنْ يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ))(٢٣)

يقول بأنّه كأيّ فرد من ربيعة ومضر، يخضع لقوانين الحياة في الولادة والموت، فلا يحتاج الأمر إلى خمش وجه أو حلق الشعر كما العادة قائمة عند نساء ما قبل الاسلام، بل يذهب إلى أبعد من هذا حين يدعو ابنتيه إلى إعلام الناس بما تعلمانه من صدقه وسلامة موقفه من أصدقائه ومحبيه.

ومثله ذهب معاوية بن أبي سفيان (ت٦٠هـ) إذ قبل بموته لأنّه لا منجى منه. ذكر الطبري (ت٣١٠هـ) في موته أنّه: ((لمّا ثَقُل معاوية وتحدّث الناس أنّه الموت، قال لأهله: احشُوا عيني إثْمدا، وأوسعوا رأسي دُهناً، ففعلوا، وبرّقوا وجهَه بالدهن، ثمّ مُهّد له، فجلس وقال: أسندوني، ثمّ قال: أئذنوا للناس فليسلموا قياماً ولا يجلس أحد، فجعل الرجل يدخل فيسلّم قائماً فيراه مُكتحلاً مُدهناً فيقول: يقول الناس هو لمآبه، وهو أصحّ الناس، فلمّا خرجوا من عنده قال معاوية: [من الكامل]

وتجلُّدي للشامتين أُريهمُ ... [أنّي لريب الدهر لا أتضعضعُ
وإذا المنيَّةُ أنشبت أظفارها ... ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

... فمات من يومه ذلك.))(٢٤)

والبيتان من شعر لأبي ذؤيب الهذلي (مخضرم) من تسعة وستين بيتاً (٢٥)، تمثّل بهما معاوية في سياق موته، والتمثّل بشعر الآخرين قائم في شعر الاحتضار، وداخل فيه طالما يتمثّل به المُحتضر لحظة موته دون رويّة أو تفكير.

كذا تمثّل في احتضاره، جزعاً مما يؤول إليه الأمر بعد الموت قائلاً: [من الطويل]

هو الموتُ،لا منجى من الموت، والذي تُحاذر بعد الموتِ أدهى وأفظعُ

ثمّ قال: اللهمّ أَقِل العثرة، واعفُ عن الزلّة، وجُد بحلمك على جهل من لم يرجُ غيرك، ولم يثق إلا بك، فإنّك واسع المغفرة، وليس لذي خطيئة مهرب.))(٢٦).

ومن الثاني ما نقله ابن زبر الربعي (ت٣٧٩هـ) بسند أبي بكر محمد بن جعفر الخرائطي عن احتضار الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ). قال: ((يروى أنّ عبد الملك بن مروان لمّا أحسّ بالموت. قال: ارفعوني على شُرف، ففعُل ذلك، فتنسّم الروح، ثم قال: يا دنيا ما أطيبك ! إنّ طويلك لقصير، وإنّ كثيرك لحقير، وإنْ كنّا منك لفي غرور، وتمثّل بهذين البيتين [من الخفيف]

إنْ تُناقش يكنْ نقاشُك ياربِّ عذابا لا طَوْقَ لي بالعذابِ
أو تُجاوزْ فأنتَ ربٌّ صفوحٌ عن مُسيءٍ ذنوبُه كالتراب))(٢٧)

وعبد الملك يقبل بموته، لأنّه حكم الله فيه، لكنّه في الوقت نفسه، يدعوه إلى الصفح والمغفرة لأنّ ذنوبه كثيرة كالتراب.

ومثله فعل ذو الرمّة، أبو الحارث غيلان بن عقبة، لمّا حضرته الوفاةُ بالبادية سنة ١١٧هـ قال: ((أنا ابنُ نصف الهرم، أي أنا ابن أربعين، وقال: [من البسيط]:

يا قابضَ الروحِ مِنْ نفسي إذا احتضرتْ وغافرَ الذنب، زَحْزِحني عن النارِ))(٢٨)

وكذا فعل أبو نواس (ت١٩٨هـ). ذكر ابن عبد ربّه الأندلسي (ت٣٢٧هـ) بسند أبي الفضل العباس، الرياشي (ت٢٥٧هـ) أنّه قال: ((وجدتُ تحت الفراش الذي مات عليه أبو نواس رقعة مكتوب فيها هذه الأبيات: [من الكامل]

يا ربِّ إنْ عظُمتْ ذُنوبي كثرةً فلقد علمتُ بأنّ عفوك أعظمُ
إنْ كانَ لا يرجوكَ إلا مُحسنٌ فبمنْ يلوذُ ويستجيرُ المجرمُ
أدعوكَ ربِّي كما أمرتَ تضرّعاً فإذا رددتَ يدي فمن ذا يرحم
ماليْ إليكَ وسيلةٌ إلا الرَّجا وجميلُ عفوك، ثمّ إنّي مسلمُ (٢٩)

وأبو نواس الغارقُ حتى أُذنيه في ذنوبه، يرضى بشرع الله وحكمه، ويرى حق الموت عليه، غير أنّه يبحث عن منجاة من خلال رجاء الله، والاستكانة إلى عفوه الجميل، فضلاً عن انتمائه إلى ملّة الإسلام. وإنْ كان الثلاثة المتقدمون قبلوا بالموت في انتظار العفو والصفح، فإنّ يحيى بن خالد البرمكي (ت١٩٠هـ) قبل به في انتظار أنْ يُوقع اللهُ بخصومه يوم الحساب. قال في رُقية تركها تحت فراشه قبل موته: [من الوافر]

وحقّ اللهِ إنّ الظلمَ لؤمٌ وإنّ الظلمَ مرتعهُ وخيمُ
إلى ديّان يومِ الدين نمضي وعندَ اللهِ تجتمعُ الخصومُ (٣٠)

وقبل به الخليفة المعتصم (ت٢١٨هـ) في احتضاره، لأنّه يدرك الجميع. نقل أبو الفرج الأصبهاني (ت٣٥٦هـ) بسند هاشم بن محمد الخزاعي الراوية: ((لمّا أحسّ المعتصم بالموت قال لابنه الواثق: ذهب والله أبوك يا هارون ! للهِ درّ أبي العتاهية (ت٢١١هـ) حيث يقول: [من السريع]

الموتُ بين الخلْقِ مُشتركٌ لا سُوقة يبقى ولا ملِكْ

مـا ضـرّ أصـحابَ القليـل ومـا أغنـى عـن الأمـلاك مـا ملـكوا))(٣١)

وقيل به الخليفة المنتصر (ت٢٤٨هـ) لأنّه يُصيره إلى الرب الرحيم. ((قال عند الموت: يا أماه ذهبت منّي الدنيا والآخرة، عاجلتُ أبي فعُوجلتُ (*) ... وقال: [من الطويل]

فمـا متّعـتُ نفـسي بـدنيا أصـبتُها ولكـنْ إلـى الـربّ الـرحيم أصـيرُ
ومـا كـانَ مـا قدّمتـهُ رأيَ فلتـةٍ ولكـنْ بفتياهـا أشـارَ مُـشيرُ (٣٢)

مشيراً إلى ما كان مكتوباً بالفارسية على فرشه الذي يجلس عليه في مجلسه الذي يجلس عليه. ونصه: ((أنا شيرويه بن كسرى قتلتُ أبي فلم أمتّع بالملك بعده))(٣٣).

وقيل به أبو بكر الشبلي الصوفي، جحدر بن دلف (ت٣٣٤هـ)، لأنّه مأمون الجانب يوم القيامة. كان يقول طول ليلته التي مات فيها: [من المديد]

كـلّ بيـتٍ أنـتَ سـاكنه غيـرُ محتـاج إلـى الـسّرج
وجهُـكَ المـأمـولُ حُجّتـنا يـوم يـأتي النـاسُ بـالحجج))(٣٤)

وخطابه خطاب صوفي متقدم، بلغت به الصوفيّة إلى الاندماج الكلّي مع الذات الإلهيّة، حتّى حسم أمر حسابه دون انتظار ما إذا يغفر له الله يوم الحساب أو لا.

ويضيف ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) بيتاً آخر بين بيتي الخطيب هو:

وعـليـلاً أنـتَ عائـذه قـد أتـاهُ الله بـالفـرجِ (٣٥)

وكان الشبلي يذهب في النصوص على أنّه: ((ترويح القلوب بمراوح الصفاء، وتجليل الخواطر بأردية الوفاء، والتخلّق بالسخاء، والبِشر في اللقاء.))(٣٦).

ثانياً: طلب الموت

والطلب: محاولة وجدان الشيء وأخذه. وطلب الموت: الرغبة فيه (٣٧) وسواء كان الطلبُ محاولة الحصول على الشيء أو الرغبة فيه، فهو مذموم، مكروه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يتمنّين أحدُكم الموت لضُرٍ نزل به.))(٣٨). وقال: ((لا تدعوا بالموت ولا تتمنوه.))(٣٩).

ولكن مع ذلك فقد حصل مَنْ طلب الموت على رغم الحديثين الشريفين، فمنهم من طلبه لأنّه يقرّبه من لقاء ربّه، ويبعده من صحبه غير المنصفين، كما في قول منصور الفقيه، منصور بن اسماعيل (ت٣٠٦هـ): [من الكامل]

قـد قلـتُ إذْ مـدحوا الحيـاةَ فـأكثروا للمـوتِ ألـفُ فـضيلةٍ لا تُعـرفُ
منهـا أمـانُ لقائـه بلقائـه وفـراقُ كـلّ مـصاحبٍ لا ينـصفُ (٤٠)

أو طلبه لأنّ العيش لا خير فيه، كما طلبه المهلبي، أبو الحسن محمد بن هارون، أيام شدّته في أواخر العصر العباسي الأول، قبل توليه الوزارة للبويهيين، حين اشتهى اللحم فلم يقدر عليه لضيق اليد: [من الوافر]

ألا مـوتٌ يُبـاعُ فاشـتريه فهـذا العـيشُ مـا لا خيـرَ فيـهِ
ألا مـوتٌ لذيـذ الطعـم يأتـي يخلّـصني مـن العـيشِ الكـريهِ (٤١)

وإذا كان لابن الزيات الوزير، محمد بن عبد الملك (ق٢٣٣هـ) بعضُ التبرير في طلب الموت بما كتبه بفحمة على جدار التنور الحديدي الذي أدخله فيه المتوكل عقاباً على قسوته مع مراجعيه أيام وزارته: [من مجزوء الرمل]

مـن لـهُ عهـدٌ بنـومٍ يُرشـدُ الـصّبَّ إليـهِ

رحِم الله رحيماً دلّ عيْنيّ عليه
سهرتْ عيني، ونامت عينُ منْ هُنْتُ عليه [٤٢]

فلأنّه تعرّض إلى ما لا يتحمله انسانٌ مقيد بخمسة عشر رطلاً من الحديد، في تنور حديدي [*] زُرعت في أطرافه مسامير محدّدة مثل رؤوس الابر العظيمة، كيفما انقلب أو تحرّك من حرارة النار تدخل المساميرُ في جسمه [٤٣].

نعم إذا كان لابن الزيّات الوزير بعض الحقّ في طلب الموت للأذى غير المستحمل الذي لقيه في التنور الحديدي، بدعوة مَن يعرف الراحة لارشاده إليه فليس من حقّ أبي زبيد الطائي، منذر بن حرملة (جاهلي أدرك الاسلام، ومات على النصرانية) أن يطلبه، البتة في قوله: [من الطويل]

إذا جُعِل المرءُ الذي كان حازماً يُحلّ به حلّ الحُوار ويُحملُ
فليسَ له في ا لعيش خيرٌ يريدهُ وتكفينُه ميْتاً أعفّ وأجملُ [٤٤]

لأنّ ما حلّ بالأول فاق التحمّل، وما حلّ بالثاني يمكن تحمّله.

ثالثاً: رفض الموت

وكثُر مَنْ رفضه لأنّه نازل شديد على المرء، ينزل به على الكراهة. قيل: [من السريع]

يا موتُ ما أجفاكَ من نازلٍ تنزلُ بالمرءِ على رغمِهِ
تسلبُ العذراء من خدرِها وتأخذُ الواحدَ من أمّهِ [٤٥]

وفوق هذا، ففي الموت جزعٌ. سُئل جُحربن عدي لمّا أُقتيد للقتل: ((أتجزع ؟ قال: وكيف لا أجزع ؟ سيف مشهور، وكفن منشور، وقبر محفور))(٤٦). فلا بدّ إذن، أنْ يستوحش المُحتضر موته، أو يشكو منه، أو يتجاهله.

ورفض الموت سواء كان بالوحشة منه، أو بالشكوى، أو بالتجاهل، صرخةٌ استنكارية يطلقها المُحتضر، دون التصريح بها، بوجه زائره غير المرحب به، في إطار همومه الذاتية وانفعالاته القائمة على آلامه وقلقه وجزعه، يسميها أصحاب الفلسفة اليومَ، الصرخات الوجوديّة. [*]

وهذه الصرخات الوجودية أو الانفعالات الذاتية تقرؤها عند أميّة بن أبي الصلت (جاهلي أدرك الاسلام ولم يسلم) لأنّه ينهي وجوده وتاريخه. قال لمّا حضرته الوفاة [من الخفيف]

كلُّ عيشٍ وإنْ تطاولَ دهراً صائرٌ مرّةً إلى أنْ يزولا
ليتني كنتُ قبل ما بدا لي في رؤوس الجبالِ أرعى الوُعولا [٤٧]

وأميّة بن أبي الصلت مستوحشٌ من موته، منزعج منه لأنّه لم يأخذ تاريخه ومكانة عشيرته بنظر الاعتبار، بل ساقه إلى مصيره كما يُساق أي كائن. فتمنى إزاءه لو ما كان كما كان، بل تمنّى لو كان راعياً يرعى الوعول في أعالي الجبل.

ووحشة الشاعر وانزعاجه بيّنة فيما طرح وتمنّى. كذا وحشةُ زيد الخيل بن مهلهل الطائي (جاهلي أدرك الاسلام) انزعاجه بيّن في قوله، لمّا أحسّ بالموت:

أمرتحلٌ قومي المشارقَ غُدوةً وأُتركُ في بيتٍ بفردةِ منجدِ
ألا رُبّ يومٍ لو مرضتُ لعادني عوائدُ مَنْ لم يُبرَ منهنّ يجهدِ [٤٨]

وزيد الخيل سمّاه رسول الله، زيد الخير لمّا تزعّم وفد طيء عام الوفود لإعلان إسلامهم، ولكنّه في طريق العودة أصابته حُمّى بماء من مياهه يقال له: فردة، فقال البيتين في سياق الموت.

وزيد الخيل مزعوج بموته لأنّه يخرجه عن قيادة قومه، ويبعده عن أهله، ويتركه هامدا في أرض غريبة دون أن يعوده عائد أو يبكيه باك.

والوحشة والغربة بينة عند الحطيئة، جرول بن أوس (مخضرم، أسلم ثم ارتدّ) حين تمثّل (*) لما حضرته الوفاة [من الطويل]

لكلّ جديدٍ لذّةٌ غير أنني رأيتُ جديدَ الموتِ غير لذيذِ (٤٩)

والانزعاج من الموت بيّن فيما تمثّل به الحطيئة، والتمثّل كما مضى داخل في شعر الاحتضار، طالما المُتمثَّل يُتمثّل به بداهة أو ارتجالاً دون فسحة للتفكير أو الرويّة. والحطيئة لمّا تمثّل بشعر ضابئ فلأنّه لم يأته ما يجاوب به حاضري احتضاره لمّا سألوه الوصيّة. قالوا: ((أوصِ يا أبا مليكة، فقال: مالي للذكور من ولدي دون الاناث فقالوا: إنّ الله لم يأمر بهذا، فقال: لكنّي آمر به ! ثمّ قال: ويل للشعر من الرواة السوء، وقيل له: أوصِ للمساكين بشيء، فقال أصيهم بالمسألة ما أشوا، فإنّها تجارة لن تبور ! وقيل له: اعتقْ عبدك يساراً، فقال: اشهدوا أنه عبدٌ ما بقي عبْسيٌّ ! وقيل له: فلان اليتيم ما توصي له بشيء ؟ فقال أوصي أن تأكلوا ماله، .... ! قالوا: فليس إلا هذا ؟! قال: احملوني على حمار فإنّه لم يمُتْ عليه كريم، لعلّي أنجو، ثمّ تمثّل:... ومات مكانه.))(٥٠).

ورفض الحطيئة للموت واضح، سواء بما مثّل به، أو بما أجاب عوّاده أو شهود موته، فصرخته في الاثنين عالية مدوّية.

ووحشة هدبة بن خَشرم العذري (ت نحو ٥٠هـ) من موته ـ لا تختلف كثيراً عن وحشة الحطيئة. قال لمّا أيقن بالموت: [من الطويل]

ألا عللاني قبل نوح النوائح وقبلَ اطّلاع النفس بين الجوانح
وقَبْلَ غدٍ ـ يا لهْفَ نفسي على غدٍ ـ إذا راحَ أصحابي ولستُ برائح
إذا راح أصحابي بفيض دموعهم وغُوْدِرتُ في لحدٍ عليّ صفائحي (٥١)

ووحشته من الموت حصلت لأنّه يُفرّق بين الأصحاب. فيما حصلت وحشة الصِّمَّة القشيري (ت نحو ١٠٠هـ) من موته في احتضاره، وهو مُلقى في بستان بطبرستان يكابد الموت، ويقول: [من الطويل]

تعزّ بصبر، لاوجدّك، لا ترى بشامَ الحِمى، أخرى الليالي الغوابر
كأنّ فؤادي مِنْ تذكّرِه الحِمى وأهلَ الحِمى، يهفو به ريشُ طائر

من سمعوه، قالوا: فما زال يردّد هذين البيتين حتى فاضت نفسه.(٥٢)

والصمّة القشيري، هو الصمة بن عبد الله بن الطفيل، شاعر إسلامي بدوي مقل، من شعراء الدولة الأموية، وكان قد خرج في غزي من المسلمين إلى بلاد الديلم، فمات بطبرستان (٥٣). وموته بعيداً عن هله، وحيداً دون أن يرافقه أحد، آلمه وهزّه حتّى حرّكا فيه مشاعر الرفض والاحتجاج، وهي مشاعر طبيعية لشاعر يجد نفسه مُحتضراً في بلاد غير بلاده، وحيداً دون أن يحيط به الأهل والأحباب.

أمّا وحشة الفرزدق (ت ١١٠هـ) فتحصل، لأنّ الموت يأخذه نجماً لا يُعوّض. وقد ((قيل له في مرضه الذي مات فيه: اذكر الله فسكت طويلاً، ثم قال: [من الوافر]

إلى مَنْ تفزعون إذا حثوْتمْ بأيديكم عليّ مِن التراب
ومنْ هذا يقوم لكم مقامي إذا ما الريقُ غصّ بذي الشراب

فقالت له مولاةٌ له: نفزع إلى الله، فقال: اخرجوا هذه من الوصيّة، وكان قد أوصى لها بمائة درهم.))(٥٤).

والفرزدق شديد الحنق لأنّه يموت، وربما يرى موته غير عادل أصلاً، لأنّ موته حسب ما يرى يترك فراغاً لا يمكن سدُّه بسهوله، وهو أساساً يستقبله همّاً ثقيلاً ليس بمقدوره تفاديه، وعليها يصبُّ جام غضبه على مولاته حين تفتح له باباً إلى الله.

إنّ الفرزدق في احتضاره متمرد كبير، يمكن فهمه في البيتين دون إعمال فكر كبير.

ووحشة ابن المقفع (ق١٤٢هـ) لا تختلف كثيراً عن وحشة الفرزدق، وربما يتعداها بأشواط لهول ما لقيه في احتضاره.

ذكر الجهشياري (ت٣٣١هـ) بغير سند: ((أنّ سُفيان لمّا أُمر بتقطيع ابن المقفع، وطرحه في التنور، قال له: و إنّك لتقتلني، فتقتل بقتلي ألف نفس، ولو قُتل مئة مثلك ما وفوا بواحد، ثمّ قال: [من الوافر]

إذا ما مات مِثلي مات شخصٌ ... يموتُ بموتِهِ خَلقٌ كثيرُ
وأنتَ تموتُ وحدَكَ ليس يدري ... بموتِكَ لا الصغيرُ ولا الكبيرُ))[٥٥]

وسفيان هو سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب، متولي البصرة للمنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ) وكان شديد الحنق على ابن المقفع لأمور كانت بينهما منذ تولّيه نيسابور لعبد الله بن عمر بن عبد العزيز أيام الأموية. فلمّا أمره المنصور بقتله، وظّف حقده في ذلك، فأمر بتنور فسُجّر، ثم أمر بابن المقفع فقُطعت أطرافه عضواً عضوا، وهو يلقيها في التّنور، وهو ينظر، حتّى أتى على جميع جسده، ثمّ أطبق عليه التنور.))[٥٦].

ورفضُ ابن المقفع لموته واضح في البيتين، وكراهيته له شديدة مديدة لأنّه يفضي إلى تلف خلق كبير. يريد به أنّ قاتله نكرة، إذا مات، مات لوحده، فيما إذا مات هو، مات علماً تضرر بموته عدد كبير من الأتباع والأنصار.

ومثله استوحش خلف الأحمر (ت١٨٠هـ).

ذكر ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) أنّه ((لمّا احتُضر خلف الأحمر قيل له: قل: لا إله إلا الله، فسكت، فأُعيد عليه، فسكت، فأعيد عليه ثالثاً فقال: [من المنسرح]

جَفّ بمقدار ما جرى قلمُه

وما زال يُردّدها حتى مات.))[٥٧]وكأنّ الرجل أقرّ بما وقع فيه، بمبدأ البداية والنهاية. ولكن أظهر امتعاضه الشديد من هذه النهاية التعيسة التي تحصده دون اعتبار لما كان عليه في حياته الدنيا. ويؤكد ذلك ما نقله أبو علي القالي البغدادي (ت٣٥٦هـ) من أنّه أنشد أيضاً في احتضاره: [من البسيط]

لا يبرحُ المرءُ يستقري مضاجعَه ... حتّى يبيتَ بأقصاهنّ مضطجعا [٥٨]

وكأنّ المُحتضر يقول: إنّ الانسان ما أن يُدرك غايته حتى يحصده الموت شرُّ حصد. فأُفٍ لهذه الدنيا الدنية.

ومثلهم رفض علي بن الجهم (ق٢٤٩هـ) موته، واستوحش منه وانزعج. نقل أبو الفرج الأصبهاني (ت٣٥٦هـ) عن علي بن العباس عن الحسين بن موسى أنّه قال: ((لمّا شاع في النّاس مذهبُ علي بن الجهم، ونوشرُه وذكره كلّ أحد بسوء، من صديقه وعدوّه، تحاماه النّاس فخرج عن بغداد إلى الشّام (*) فاتفقنا في قافلة إلى حلب، وخرج علينا نفر من الأعراب، فتسرّع إليهم قوم من المقاتلة... وخرج فيهم فأصابته طعنة قتلته فجئنا به واحتملناه وهو ينزف دمه. فلمّا رآني بكى وجعل يوصيني بما يريد، فقلتُ له: ليس عليك بأس. فلمّا أمسينا قلق قلقاً شديداً، وأحسّ بالموت، فجعل يقول: [من المجتث]

أَزِيدَ في الليلِ ليلُ ... أمْ سالَ بالصُّبْحِ سيلُ
ذكرتُ أهلَ دُجيلٍ ... وأينَ مِنّي دُجيلُ؟

فأبكى كلّ من كان في القافلة، ومات مع السحر.))[٥٩].

وقيل إنّه لمّا نُزعتْ ثيابه بعد موته وُجدتْ معه رقعة فيها: [من المنسرح]

يا رحمةً للغريبِ في البلدِ النـ ... ـنازحِ ماذا بنفسِهِ صنعا ؟
فارقَ أحبابَه فما انتفعوا ... بالعيشِ مِنْ بعدِه ولا انتفعا))[٦٠]

***

أمّا رفض الموت بالشكوى منه فيتّضح فيما يُروى من قديم الشعر لدُويد بن زيد بن النهد القضاعي حين حضره الموت: [من الرجز]

اليـــــومَ يُبنـــــى لِدويــــدٍ بيتُــــه لـــو كــــانَ للـــدهرِ بَلًـــى أبليْتُـــه
أو كـــــانَ قِرنـــــي واحـــــداً كفيتُــــه يـــا رُبَّ نَهْـــبٍ صـــالحٍ حَويْتُـــه
وربَّ غيـــلٍ حـــسنٍ لـويتـــــــه ومِعـــصَمٍ مُخـــضّبٍ ثنَيْتُــــــه (٦١)

وكان من الممكن أن نضع الأبيات في صنف من استوحش مَن موته لولا شكواه القوية من دهره (أي موته) فيما ذهب إليه أنه لو كان لهذا الدهر شاخص لأبلاه وحطّمه. ولكن هيهات فليس لهذا الموتِ شاخص، إنّما ينفذ إلى المرء ليأخذ روحه بأسرعِ من لمح البصر. وكذا الأمر مع قِرْنه (أي كُفئه) فإنّه لو كان واحداً لقدر عليه، وسيان كان هذا الواحد رجلاً بعضلات مفتولة، أو امرأة بخضاب قوي ولكن هيهات فقرنه أقران لا يقدر عليهم، ومنهم شكواه. وشكواه في الحالتين شكوى (امتناع لامتناع.)
كذا (أرجز) في السياق نفسه:

ألقـى عليَّ الدهرُ رِجلاً ويدا
والدهرُ ما أصْلَحَ يوماً أفسدا
يصلحهُ اليومَ، ويفسدهُ غدا (٦٢)

وشكواه هنا شكوى مَنْ يُكتِّفه الدهر ويفسد عليه صلاحه، وهو لهذا التكتيف والافساد شديد الحنق عليه، عظيم الرفض لما جلبه له، حتّى أدخل الناس في دائرة غضبه ورفضه بوصفهم أداةً من أدوات هذا الدهر الفتّاك، فأوصى بنيه بهم شرّاً، حين الاحتضار، قال: ((أوصيكم بالناسَ شرّاً، لا تقبلوا لهم معذرةً، ولا تُقيلوهم عثرة.))(٦٣)

ورفض الموت بالشكوى من الدهر، واضح كذلك عند سيبويه النحوي (ت١٨٠هـ). قال ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ): ((احتضُر سيبويه النحوي، فوضع رأسه في حجر أخيه، فقطرتْ قطرة من دموع أخيه على خدّه، فأفاق من غشيته. وقال: [من الطويل]
أُخيَّيـــن كنّـــا، فـــرّق الدهــــرُ بيننـــا إلـى الأمـد الأقـصى ومَـن يـأمن الـدهرا؟(٦٤)

وشكواه من الدهر أو من الموت لأنّه يفرّق بينه وبين أخيه.
وفي خبر آخر يشكو من موته لأنّه لا يخلده، وهو في ذات الهموم الفردية التي أُشيرتْ إليها فيما تقدّم. نقل الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) أنّه ((لمّا قدم سيبويه إلى بغداد، فناظر الكسائي وأصحابه، فلم يظهر عليهم، سأل من يبذل من الملوك ويرغب في النحو ؟ فقيل له: طلحة بن طاهر، فشخص إليه إلى خراسان، فلما انتهى إلى ساوة، مرض مرضه الذي مات فيه، فتمثّل عند الموت:[من المتقارب]
يؤمِّــــلُ دُنيـــــا لتبقـــــى لــــه فـــوافى المنيــــة دون الأمـــــل
حثيـــثاً يُـــروّي أصـــــــولَ الفـسيل فعـــاش الفـسيل ومـــــات الرجـــلُ (٦٥)

وشكا أحمد بن يوسف الكاتب (وزير المأمون وأحد البلغاء البارزين في العباسيّة المتقدّمة (ت٢١٣هـ) حين حضرته الوفاة على بستان له على شاطئ دجلة، بتمثّله بـ: [من البسيط]
مـــا أطيـــب العـيش لـــولا مـــوتُ صـــاحبه ففيـــهِ مـــا شـــئتَ مِـــنْ عيـــبٍ لعائبـــهِ (٦٦)

وشكواه من استحالة ذهاب الطيب بوجود الموت.
ورفض أبي حليمة الكاتب (كان حيّاً ٢١٨هـ) مفهوم في قوله، وهو يجود بنفسه في مرضه الذي مات فيه بطريق مكة: [من البسيط]
أطبقـــتْ للنـــومِ جفنـــاً لـــيس ينطبـــقُ وبـــتّ والـــدمعُ فـــي خـــدّي يـــستبقُ
لـــم يـــسترحْ مَـــنْ لـــهُ عـــينٌ مؤرّقـــةٌ وكيـــف يعـــرفُ طعـــمَ الراحـــةِ الأرقُ
وددتُ لـــو تـــمّ لـــيْ حجّـي ففـــزْتُ بـــــه مـــا كـــلّ مـــا تـــشتهيه الـــنّفسُ يتّفـــقُ (٦٧)

وأبو حليمة الكاتب، واسمه راشد بن اسحاق بن راشد، كان كاتباً شاعراً. نقل عنه صاحب المعجمين (ت٦٢٦هـ) بسند المرزباني (صاحب معجم الشعراء ت ٣٨٤هـ) أنّه اتصل بالوزير عبد الملك بن الزيات (ق٢٣٣هـ)، وله معه أخبار حسان، وأنّه (أي الحموي) لم يقف له على شعر خالٍ من الفحش وأن أكثر شعره فيه كان في رثاء متاعه. (٦٨)

وشكوى أبي حليمة شكوى مَنْ ذهب للحجّ فلم يظفر به، غير أنّ البحث لا يستبعد أن يكون وراءها موت متاعه كمن يذهب لمتعة فلا يتمّها لضعف قدرته الجنسية.

ورفض الموت حاصل أيضاً في كلام للخليفة المهتدي قاله لمّا باشروا بقتله سنة ٢٥٦هـ: [من الطويل]

أهمّ بأمر الحزْمِ لو أستطيعهُ وقد حِيل بين العَيْر والنزوانِ (٦٩)

وقتله كان بسبب امتناعه من خلع نفسه عن الخلافة، فعصر المتآمرون خصيتيه حتى مات.

وكانت خلافته كلّها إلى أن انقضى أمره، أحد عشر شهراً وخمسة وعشرين يوماً، وعمره كله ثمان وثلاثون سنة.

وشكواه من موته كانت مُرّة، شديدة المرارة ؛ لأنّه حال بينه وبين رجولته واشباع رغباته الجنسية، وهو في مقتبل العمر، أو حال بينه وبين حقّه في الاستمرار بالخلافة والتمتع بمظاهرها، كما يُمنع الحمارُ من الوثوب.

***

ورفض الموت بتجاهله أشدُّ الرفض إيقاعاً، لأنّه تحدٍّ كبير للثقافة السائدة، وصرخة شديدة لعرف المجتمع ومعتقداته، وانسلاخ حاد من جذوره، حتى ليبدو المحتضر من عالم غير عالمه القائم، يتصرف فيه وحده على هدى همومه الفردية، غير حافل بما يجري حوله، البتّة،كالمرأة النميرية لمّا يحضرها الموتُ. يسألونها الوصيّة: ((أوصي، فقالت: نعم، أخبروني من القائل: [من الوافر]

لعمرك، ما رماحُ بني نميرٍ بطائشةِ الصدوْرِ ولا قصارِ

فقيل لها: زياد الأعجم. قالت: فأشهدكم أنّ له ثلث مالي... فحل إليه من ثلثها أربعة آلاف درهم.))(٧٠)

والمرأة النميرية بتجاهل موتها، والانشغال بما يشغلها في الحياة، ترفض الموت وتستهزئ به أو تحطّ من شأنه في تحدٍّ كبير.

وأغرب من هذا، وأغرب من وصيّتها، وصيّةُ الأخطل الأموي (ت٩٢هـ) فيما ذكره صاحب الأغاني: ((لما حضرتْ الأخطل الوفاة، قيل له: يا أبا مالك ألا توصي ؟ فقال: [من المتقارب]

أُوصّي الفرزدقَ عندَ المماتِ بأمّ جريرٍ وأعيارِها

وزار القبورَ أبو مالكٍ برَغْمِ الغُداةِ وأوتارِها))(٧١)

وحماد عجرد الكوفي الماجن (ت١٦١هـ) أُنموذج آخر للذين تجاهلوا الموت والحساب، وتواصلوا مع الفحش والمجون، وكأنّهم وكأنّه يضع الموت والحساب خلف ظهره ليستمر مع فحشه، أو ينقل الفحش معه إلى الموت، غير آبه بما يجلب له هذا الموت من مصير أسود.

وفي هذا ينقل عنه أبو الفرج خبراً يفيد أنّه لمّا استتر في البصرة من محمد بن سليمان بن علي (الأمير العباسي) بسبب تشبيبه بأخته زينب، مرض بها في بعض طريقه، ومات، ونُعي إلى بشار الأعمى (ت١٦٧هـ) قبل موته، فقال: [من السريع]

لو عاش حمّاد لهونا به لكنّه صار إلى النار

فبلغ البيتُ حماداً وهو في سياق الموت، فقال يردّ عليه: [من السريع]

نُبّئتُ بشاراً نعاني، وللـ ـموتِ براني الخالقَ الباري

يـــــاليتني مِـــــتّ ولـــــم أهْجُـــــه نعـــمْ ولـــو صـــرتُ إلـــى النـــار
وأيّ خـــزيٍ هـــو أخـــزى مـــن أن يُقــال لـــي: يــا سـبَّ بـشّارِ [٧٢]

أراد أن يقول ما كان عليه أن يسبّه لأنّ السبَّ، وهو الذي يُسابّك، يكون في الكريم [٧٣] أي أنّ الكريم من الرجال وحده يُسبّ وليس الدنيء كبشّار.

لقد انزعج من سبّه لبشّار، لأنّه به رفع من شأنه بين الرجال ولم يحطّه. ثمّ إنّ همومه هموم حياتية ذاتيّة، لا تمتّ إلى الموتُ بسبب، كأنّ موته لا يفضي إلى النار بقدر ما يفضي إلى الانقطاع عن أقرانه وندمائه.

وأبو العتاهية (ت٢١١هـ) لمّا احُتضُر لم يُجب عوّاده بما يُملي عليه لمّله وزهُده. قال لمّا سأله رجل في عيادته: ((هل في نفسك شيء تشتهيه ؟ قال: أن يحضر مخارقُ الساعة فيغنيني: [من الطويل]

سـيُعرض عـن ذكـري وتُنـسى مـودتي ويحـدثُ بعـدي للخليـل خليـلُ
إذا مـا انقـضت عنّـي مـن الـدهر مُـدّتي فـإنّ غِنـاء الباكيـاتِ قليـلُ)) [٧٤]

وأبو العتاهيّة لا يهمه الموتُ، وما يجلب له الموت، بل يضعه وراء ظهره كحماد عجرد. يريد فقط أن يسمع مخارق قبل أن يسدّوا عليه السمعَ، وذلك همّه الوحيد.

وذكر ابن خلكان (ت٦٨١هـ) أنّه ((أوصى أنْ يكتب على قبره: [من الخفيف]

إنّ عيـشاً يكـون آخـرهُ المـو تَ لعـيشٌ معجّـلُ التنغيـص [٧٥]

ومبدأ رفض الموت بادٍ بشكل واضح في بيت أبي العتاهية.

وأوضح منه أبيات الحلاج، الحسين بن منصور (ق٣٠٩هـ) لمّا اقتيد للقتل: [من الهزج]

نـديمي غيـرُ منـسوبٍ إلـى شـيءٍ مـن الحَيْـف
سـقاني مثـل مـا يـشْرَ بُ فعـل الـضّيف بالـضيفِ
فلمـا دارتِ الكـأسُ دعـا بـالنّطْع والـسيف
كـذا مَـنْ يـشرب الـراحَ مـعَ التّنّـينِ فـي الـصيفِ [٧٦]

وليس خافياً رفض الحلاج لموته، كذا ليس خافياً وضع الجلاد والمجلود في صف واحد بوصفهما طرفي المسألة الأزليّة، لا يمكن أن يقوم طرف دون الطرف الآخر، والطرفان يُشغلان الشُغلَ حتى لا يشغلهما الشغل نفسه.إنّ كلا من الجلاد والمجلود أجيران ليس إلا.

قال يجاوب خادمه لمّا سأله الوصيّة، في الليلة التي وعد من الغد قتله: ((عليك نفسك إنْ لم تشغلها شغلتك، ثمّ قال لمّا أُخرج للقتل في الغد: حسب الواحد، افرادُ الواحد له، ثمّ خرج يتبختر في قيده، ويقول: (الأبيات)) [٧٧]

خصائص شعر الاحتضار وصورته الفنّيّة :

برغم أن الشاعر المُحتضر ينتمي إلى ثقافة عصره، ويتوكأ على لغة شعره السائدة إلا أنّ ظروفاً قاهرة يعيشها في سياق موته، تتعلق بمصيره، تجعله بعيداً بعض الشيء عن هذه الثقافة وتلك اللغة، ليعبّر عمّا يجيش في صدره في لحظة الموت دون رويّة أو تفكير، فتأتي لغة أغلب الشعراء المحتضرين أقرب إلى لغة التخاطب اليومي منها إلى لغة الفصاحة المعهودة. كما عند الخليفة المنتصر في أثناء احتضاره:

فمـا متّـعتُ نفـسي بدنيـا أصـبتُها ولكـنْ إلـى الـربّ الرحيـم أصيـرُ

وعند ابن الزيات حين احتراقه في التّنّور:

مـنْ لـه عهـدٌ بنـوم يُرشـدُ الـصّبّ إليـه
رحـم الله رحيمـاً دلّ عينـي عليـه

ومن خصائص هذا الشعر أنّ شاعره يبني شعره على أسلوب المخاطبة والحوار، يتضح في قول عبد الملك بن مروان يخاطب الله لتأمين صفحه:

إنْ تنــــاقشْ يكــــن نقاشــــك يـــاربْ ب عــــذابًا لا طــــوقَ لـــي بالعـــذاب
أو تجـــاوزْ فـأنــت ربٌ صفـــــوح عــن مــسيء ذنوبـــــه كـالتّراب

ومثله ذهب أبو نواس، طارحاً مذهبه بأسلوب سهل مأنوس، اتّضح في قوله:

يــا ربِّ إنْ عظُمــتْ ذُنــوبي كثــــرة فلقــد علمــتُ بــأنَّ عفــــوك أعظــمُ

ومن خصائصه أيضاً أنّ الشاعر المُحتضر يطرح شعره بصراحة تامة دون الدخول إلى المتاهات وتعمية النص كما في قول يحيى بن خالد حين موته:

وحــــقَ الله إنَّ الظلــــم لــــومٌ وإنَّ الظلــــم مرتعــــه وخــــيم
إلـــى ديّـــان يـــــوم الـــدينِ نـمـضـي وعنــد الله تجتمـــــع الخــصومُ

كذا يطرح شعره بأسلوب من يستدرُّ به عطف غيره في محاولة لإشراكه في محنته الخاصة، كما في قول هدبة لمّا أيقن الموت:

ألا علانــــي قبـــل نــــوح النـــوائح وقبــل اطـــلاع الـــنفس بـــين الجـــوانح
وقبـل غـد - يـا لهـف نفسي علـى غـد - إذا راح أصــــحابي ولـــست بــــرائح
إذا راح أصــحابي بفـيض دموعـــــــهم وغــودرتُ فــــي لحــد علـــيَّ صـــفائح

وعلى الجملة فمعاني هذا الشعر واضحة، ترد على لسان الشاعر، عفو الخاطر، دون اعمال فكر فيها، وذلك لأنّه في صدد ايصال ما يود ايصاله لمشاهدي موته دون الالتفات إلى المبنى جدل من الأول. فيأتي هذا الشعر واضحاً، سهلاً، خالياً من أيّ تقعّر في جمله، إلا ما ندر حيث رصد البحث في بعض هذا الشعر شيئاً من تعقيدات أصحاب الرأي والكلام والتصوف في كلام لخلف الأحمر تهرّب به من إلحاح مَن طلبه بقول لا إله إلا الله، فقال:

(جف بمقدار ما جرى قلمه)

وكلام للحلاج واجه به سفّاكي دمه يوم خرج لمقتلته يتبختر في قيد:

نــــديمي غيـــرُ منــــسوب إلــــى شـــيء مـــن الحيـــفِ
ســـــقاني مثــــل مـــا يــــشر بُ فعــــلَ الـــضّيف بالـــضيف
فلمّــــا دارتِ الكـــــأس دعــــا بــــالنّطع والـــسيفِ
كـذا مَـنْ يـشرب الــــراح مــع الــتّنين فــي الــصـــيف

***

أمّا صورة هذا الشعر الفنيّة فرغم افتقاره الشديد إلى هذه الصور، لأسباب موضوعية أتينا إلى ذكرها فيما تقدم، إلا أنّه حوى بشكل من الأشكال شيئاً من هذه الصور، ولاسيما في شعر الفطاحل من الشعراء المُحتضرين والمتمكنين من أدواته وأفانينه، فاستوى شعر حياتهم مع شعر احتضارهم، قوة وجزالة وبلاغة.

في بلاغة البيان، ورد فيما تمثّل به عبد الملك بن مروان، تشبيه، في قوله:

أو تجـــاوزْ فـــأنت ربٌ صفـــــوح عـــن مـــسيء ذنوبـــــه كالتـــراب

إذ شبّه ذنوبه بالتراب في علاقة مشابهة بين (المشبّه): ذنوبه و (المشبّه به): التراب، يسميها البلاغيون (وجه الشبه). فيما ربط بين طرفي التشبيه بأداة (الكاف) تسمّى (أداة التشبيه). ولا يُخفى ما في

صدر البيت من تشبيه بغير الأداة يسميها البلاغيون (التشبيه البليغ). وكلا التشبيهين تشبيه (مفرد بمفرد)، فيما ورد عند الصمة القشيري تشبيه صورة بصورة في قوله:

كـأنَّ فـؤادي مِـن تذكّـره الحِمـى وأهـلَ الحِمـى، يهفـو بـه ريـشُ طـائر

فشبّه فؤاده حين يتذكر موطنه ومواطنه بريش طائر يهفو، في تشبيه (صورة بصورة) حقق مراده بـ(أداة التشبيه):كأنّ

وفي احتضارية الحلاج (مجاز مرسل) في قوله:

فـلمّـا دارتَ الـكـأسُ دعـا بـالنّطـعِ والـسيفِ

والمجاز المرسل ويسميه البلاغيون القدامى (المجاز اللغوي) هو استعمالك الكلمة في غير معناها الأصلي بقرينة مانعة من إرادة هذا المعنى مع وجود علاقة غير المشابهة بين الكلمة المستعملة والمعنى الأصلي [٧٨] وكأس الحلاج مجاز مرسل، لأنّ الكأس محل، والمطلوب محتوياتها وهي الخمر فعلاقة الكأس بالخمر تخرج من المشابهة إلى المحليّة.

فيما في قول المهلبي:

ألا مـوتٌ يـباع فـأشتريه ؟ فـهذا الـعيشُ مـا لا خيـر فيـه

استعارة، والاستعارة في أصلها تشبيه، حذف منه طرف وبقي طرف. فإذا ما كان (المحذوف) المشبّه والباقي (المشبّه به) فالاستعارة تصريحية، وإذا كان المحذوف هو (المشبّه به) والباقي (المشبّه) فالاستعارة مكنيّة [٧٩]، واستعارة المهلبي مكنيّة لأنَّ الذي بقي من تشبيهه، المشبّه (الموتَ)، والذي ذهب عنه المشبه به (السلعة) لوجود قرينته البيع.

ومثلها استعارة سيبويه (فرّق الدهر بيننا) في قوله:

أُخـيين كنّـا، فـرّق الدهـرُ بيننـا إلـى الأمـد الأقـصى ومـن يـأمن الـدهرا ؟

ومثلها استعارة خلف الأحمر (جرى قلمه) في قوله:

جفّ بمقدار ما جرى قلمه

ويقرأ البحث كنايات في قول دويد القضاعي:

اليـومَ يُبنـى لدويـد بيتـه لـو كـان للـدهر بلـى أبليتـه
أو كـان قِرنـي واحـداً كفيتـه يـا رُبَّ نهـب صـالح حويتـه
وربَّ غـيل حـسـن لويتـه ومـعـصـم مـخـضب ثـنيتـه

وأولاها في بيته الأول حين كنّى بالبيت عن الموت. والكناية كما يذكرها عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ((أنْ يزيد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه.)) [٨٠] والكناية قد تكون كناية عن صفة، أو عن موصوف، أو عن نسبة، وهي في كناية دويد كناية عن موصوف إذ كنى بالبيت عن القبر، والقبر موصوف.وكذا الأمر في كنايتيه، حين كنى بالغيل وهو الساعد الممتلئ عن الفارس البطل، والمعصم المخضب عن المرأة.

ومثلها كنايتا ذي الرمة: (يا قابض الروح)، و (غافر الذنب) إذ كنى بهما عن الله تعالى في قوله:

يـا قـابض الـروح مـن نفـسي إذا احتـضرت وغـافر الـذنب زحزحنـي عـن النـار

وكذا كناية هدبة بن حشرم (اطلاع النفس) إذ كنّى به عن الموت، في قوله:

ألا علّلانـي قبـل نـوح النـوائح وقبـل اطـلاع الـنفس بـين الجوانـح

وليس خافيا بديعه الذي جانس بين (نوح والنوائح) و (النوائح والجوانح) جناسا بالمجانسة في الأول، وناقصا بنوع الحروف في الثاني، والحقيقة أنّ الجناس بالمجانسة وهو تجانس اللفظين في النطق، حاضر بقوة في شعر الاحتضار دون غيره من الجناس، وربما لأن احتضاره لا يحتاج إلى عمل جهد وتصنّع، كما أحضره المنتصر في احتضاره:

ومـا كـان مـاقدمتـه رأى فلتـة ولكـن بفتياهـا أشـار مـشيرُ

حين جانس بين (اشار ومشير). وأحمد بن يوسف الكاتب في قوله:

مـا أطيـب العـيش لـولا مـوت صـاحبه ففيـه مـا شـئت مـن عيـب لعائبـه

حين جانس بين (عيب وعائب). والمعتصم في سياق موته:

المـوتُ بـين الخلـق مـشترك لا سـوقة يبقـى ولا ملـك
مـا ضـرَّ أصحـاب القليـل ومـا أغنـى عـن الأمـلاك ومـا ملـكـوا

حين جانس بين (الأملاك وملكوا). والواقع أن في كلامه فضلاً عمّا أورده في الجناس نوعاً آخر من البديع، وهو الطباق وهو (الجمع بين اللفظ وضده أو منفيه في الكلام)، حين طابق بين (سوقة وملك) طباق ايجاب. ومثله طابق ابن المقفع في احتضاره:

وأنـت تمـوتُ وحـدك لـيس يـدري بموتـك لا الـصغير ولا الـكبير

حين طابق بين (الصغير والكبير). في حين طابق الحطيئة طباق سلب بين (لذة وغير لذيذ) في قوله

لكـلّ جـديد لـذّة غيـر أننـي رأيـتُ جـديد المـوت غيـر لذيـذ

أمّا المعاني فكثيرة في شعر الاحتضار، ويمكن رصدها في نصوص كثيرة، دون عناء، لعلاقتها ببناء الجملة ونحوها إلى جانب علاقتها بالفصاحة والبلاغة. ومنها أخبر لبيد بن ربيعة وأنشد ونفى وقصر في احتضاره:

تمنّـى ابنتـاي أنْ يعـيش أبـوهـما وهـل أنـا إلا مـن ربيعـة أو مـضر

وفي المعاني زيادة على ما ذكر، الوصل والفصل، والايجاز والمساواة، والاستفهام، وتلك مبذولة في شعر الاحتضار، تجاوزها البحث لسهولة الاستدلال عليها من جهة، وتجنب الاطالة من جهة ثانية.

أمّا في إيقاع هذا الشعر، فشعر الاحتضار، بمقطوعاته التسع والثلاثين، ورد بثلاثة عشر بحراً من مجموع البحور العربية الستة عشر، بواقع احدى عشرة مقطوعة من بحر الطويل، وخمس من الوافر، وأربع من البسيط، وثلاث في كل من الكامل والسريع والخفيف، واثنتين في كل من الرجز والمنسرح والمقارب، ومقطوعة واحدة في كل من المديد والمجتث والهزج والرمل.

فيما لم يرصد البحث شعراً من المقتضب والمضارع والمتدارك.

أما قوافيه فقد وردت رائية في تسع، ولامية في ست، وعينية في أربع، وبائية في ثلاث ومثله ميمية، وهائية في اثنتين، ومثله دالية وفائية. أما قوافي التاء والجيم والحاء والدال والذال والضاد والفاء والقاف والنون والهاء، فقد ورد كلّ قافية منها مرة واحدة. فيما لم تُرصد قواف همزية وثائية وخائية وزائية وسينية وشينية وصادية وطائية وظائية وغائية وواوية وألفية ويائية في المقطوعات تلك.

الخاتمة

شعر الإحتضار شعر صادق معبّر عن الهموم الفردية والذات الانسانية، لأنّ شاعره في لحظة دخوله سياق الموت ينقطع عن محيطه وعالمه، ويخرج من آماله وأحلامه وطموحاته، ليواجه ساعة انقلابية

حاسمة، لا يقول فيها غير ما يجيش في صدره دون خوف أو تردد. متجاوزا كلّ ما من شأنه أن يدفعه أو يضطرّه إلى الاختفاء والتقية في أيام حياته الدنيوية، إلى شعر صريح واضح، لا تعقيد فيه ولا غموض، يواجه به ربّه ونهايته وحيداً دون وجاهة اسم أو عظمة فعل أو حماية عشيرة أو قبيلة أو حزب، فيقول ما يقول تعبيراً عمّا آل إليه موقفه، أو ذهب إليه مذهبه في تلك الساعة المصيرية ـــ وقد يتمثّل بشعر غيره إن لم يسعفه شعره في السياق ـــ فذهب فريق إلى قبوله، وذهب آخر إلى طلبه، وذهب ثالث إلى رفضه.

فمن ذهب إلى قبوله فقد ذهب بوصفه قضاء إلهياً لا رادّ له، أو قانوناً طبيعياً ينهي به كائناً إلى زوال.

ومن ذهب إلى طلبه، وطلبه مكروه في الثقافتين الاسلامية والانسانية عموماً، فقد ذهب إليه إمّا لضرٍ نزل به، فما تمكن من دفعه أو ردّه ولا أفلح في اجتنابه،وكأنّ الموت دار راحته الأبدية وإمّا سعيا للقاء ربّه، والفوز بنعيم الجنة الذي انتظره طوال حياته المؤقتة تلك.

أمّا من ذهب إليه رافضاً، فقد ذهب إليه إمّا مستوحشاً منه، أو مشتكياً، أو متجاهلاً أحكامه ونتائجه. وأغلب من ذهب إليه، هُم المحتضرون الذين لم يكتمل الايمان عندهم، أو لم يدخل الايمان إلى قلوبهم أصلاً. فقالوا ما قالوا رافضين مستنكرين.

وكان البحث قد اختار، لما ذهب إليه، نماذج مختارة من كلّ العصور التاريخية حتى نهاية العصر العباسي الأول، لتحقيق هدفه في دراسة متأنية، تمنّى بها رضا المنصفين من أهل الأدب ودارسيه والله ـ سبحانه تعالى ـ وضع فوق كل ذي علم عليما.

الهوامش:

(1) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام ١: ١٥٧. ومغلغلة: سرعة السير. والباع: الكرم (اللسان: غلل وبوع)
(2) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ٩٧.
(3) ديوان الحماسة لأبي تمام ٢٢٩.
(4) ديوانه ١٦ ـ ١٧. والعناج: حبلٌ يُشدّ في أسفل الدلو. والكرب حبل ثان يشد فوق العناج للمتانة. (ينظر: اللسان: عنج وكرب)
(5) طبقات الشعراء، ابن المعتز ٦٢.
(6) ديوانه ١٤٤.
(7) ديوانه بشرح الصولي ١: ١٩١.
(8) شعر ابن المعتز ١: ٥٩١. والمزدوجة: تقفية مصراعي البيت، وهي من تسعة عشر وأربعمئة بيت، يُعلَم فيها ابن المعتز سيرة حياة الخليفة المعتضد من أول خلافته سنة ٢٧٩ حتى وفاته سنة ٢٨٩هـ
(9) أساس البلاغة: حضر.
(10) اللسان: حضر.
(11) تاج العروس: حضر.
(12) البقرة: ١٨٠.
(13) القصص: ٦١.
(14) سنن النسائي: جنائز ٩.
(15) ديوانه ١٠٨.
(16) الأغاني ٢٢: ٥ (الهيئة المصرية).
(17) الشعر والشعراء ٢: ٧١٦ ـ ٧١٧. والخبر في الأغاني ٢٢: ٢٤٢. والحُمّوة: سورة الألم. والمقمور: المغلوب على أمره في القمار. والجفن: غمد السيف. (اللسان: حما وقمر وجفن)
(18) المستطرف: ٣٧٦.
(19) ينظر: مختار الصحاح: وهى.
(20) اللسان: موت.
(21) ينظر: المحاسن والأضداد، الجاحظ ٢٣١، وتحسين القبيح وتقبيح الحسن، الثعالبي ٧٣

(22) ينظر: المخصص، لابن سيده ٢: ١١٤.
(23) ديوانه ٧٤ ـ ٧٥. والكلام فيه في مقطوعة من تسعة أبيات.
(24) تاريخ الطبري ٥: ٣٢٦.
(25) ينظر: ديوان الهذليّين ١ ـ ٢١.
(26) مروج الذهب، المسعودي ٣: ٥٨.وينظر: المستطرف ٦٤٩ وفيه (خاذر) مكان (خاذر) والبيت من الأبيات المجهولِ قائلها.
(27) وصايا العلماء عند حضور الميت ٨٣. والبيتان لمعاوية بن أبي سفيان، قالهما لمّا حضرتْهُ الوفاة (ينظر: الكامل في التاريخ ٤: ٨)
(28) الشعر والشعراء ١: ٥٢٥. وفي الأغاني ١٨: ٤٦ (الهيئة المصرية) يا مخرج الروح من جسمي.
(29) العقد الفريد ٣: ٢٠. والأبيات الأربعة في ديوانه ٩٨٦ بنفس الرواية والألفاظ.
(30) الوفيات ٦: ٢٢٩. واللوم: الهول. (اللسان: لوم)
(31) الأغاني ٤: ٩٨. والبيتان في ديوان أبي العتاهية ٣١٠ في مقطوعة من خمسة أبيات.
(*) في (عاجلتُ) إشارة إلى تسهيله أمر فقتل أبيه المتوكل (ق٢٤٧هـ) على يد الغلمان الأتراك. وفي (عُوجلتُ) إشارة إلى موته بمرضه وهو في السادسة والعشرين من عمره، ولم يكمّل من خلافته غير ستة أشهر. وتفاصيل الخبر في الطبري ٨: ٢٨٠ ـ ٣٠٢، وزهر الآداب للحصري ١: ٢٥٩.
(32) فوات الوفيات ٢: ٣٧٣، وينظر: مختصر التاريخ لابن الكازروني ١٥٠.
(33) ينظر: المصدر السابق (مختصر التاريخ) ١٥٠.
(34) تاريخ بغداد ١٤: ٣٩٧. والأبيات في ديوانه ١٣٩
(35) ينظر: معجم البلدان (مادة شبليّة) ٣: ٣٢٢.
(36) تاريخ بغداد ١٤: ٣٩٣
(37) ينظر: اللسان:طلب.
(38) سنن النسائي: الجنائز ١.
(39) نفسه: الجنائز ٢.
(40) منصور بن اسماعيل الفقيه ـ حياته وشعره ـ، د.عبد المحسن فرّاج ١١٢.
(41) وفيات الأعيان ٢: ١٢٤.
(42) تاريخ بغداد ٣: ١٤٦. والأبيات في الفلاكة والمفلكون ١٦٤ باختلاف في الرواية.
(*) هو نفس التنور الحديدي الذي كان قد اتخذه في أثناء وزاره ليعذّب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال. (ينظر: الوفيات ٥: ١٠٠)
(43) ينظر: نفسه ٥: ١٠٠.
(44) الشعر والشعراء ١: ٣٠٢. والحُوار بالضم: ولد الناقة حتى يفصل. (المختار: حور)
(45) المحاسن والأضداد ٢٣٢.
(46) الكامل في اللغة ٢: ٣٦١.
(*) الوجودية فلسفة تهتم بشؤون الانسان الذاتية، في شقائه وسعادته، وتبحث عن مشتهياته وسعيه الحثيث إلى تحقيقها برغم العراقيل. أقامها مدرسةً (كير كيجارد، ت ١٨٥٥م)، وطورها فلسفةً كلٌّ من الفيلسوف الألماني (هايدجر)، والفرنسي (جان بول سارتر) (في النصف الأول من القرن العشرين). (ينظر في الفلسفة الوجوديّة: الوجوديّة مذهب انساني، لجان بول سارتر، والوجودية ليست فلسفة انسانيّة، لجان كانابه.)
(47) الشعر والشعراء ١: ٤٦١. وينظر الخبر بشيء من التفصيل في مؤلّفه الثاني: عيون الأخبار ٢: ٣١٠. والبيتان في: أميّة بن أبي الصلت ـ حياته وشعره ـ ٢٤٦ ـ ٢٤٧ في ستة أبيات.
(48) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٥٧٨.
(*) في الأغاني ٢: ١٩٦ البيت لضابئ بن الحارث (قُتل أيام عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥هـ)

(49) الشعر والشعراء ١: ٣٢٣.
(50) المصدر السابق ١: ٣٢٢ ـ ٣٢٣. والخبر في الأغاني ٢: ١٩٧ بشيء من الاختلاف في اللفظ والرواية. ولَثُوا: اضطربوا (ينظر: اللسان: لَثي)
(51) العقد الفريد ٣: ١٩.
(52) ينظر:الأغاني ٦: ٤ والبشام: شجر طيب الريح، يُسْتاك به. (المختار: بشم)
(53) ينظر: المصدر السابق ٦: ١ ـ ٣.
(54) الشعر والشعراء ١: ٤٧٥. والبستان في ديوانه ١: ٩٥ برواية ثانية.
(55) الوزراء والكتّاب ١١٠.
(56) ينظر: الوفيات ٢: ١٥٢ ـ ١٥٣.وسُجّر: أحمى (المختار:سجر)
(57) طبقات الشعراء ١٤٧ ـ ١٤٨.
(58) الأمالي ١: ١٥٦. والبيت في خلف الأحمر وما وصل إلينا من شعره ٢٩٣ في سبعة أبيات.
(*) ذكر الطبري أنه خرج إلى الثغر بدافع الجهاد، وهو غير مفهوم في سلوكه وحياته الشخصية. (ينظر: التاريخ ٩: ٢٦٤).
(59) الأغاني ١٠: ٢٣٣ ـ ٢٣٤. والبيتان بالرواية نفسها مع اختلاف الخبر في الطبري ٩: ٢٦٤ ـ ٢٦٥ وكذا في مروج الذهب ٤: ١١١، والوفيات ٣: ٣٥٦. فيما في ديوانه ١٧٠ (يا أخوتي بدجيل) مكان (ذكرتُ أهل دجيل).
(60) ينظر: تاريخ بغداد ١١: ٣٦٨، والوفيات ٣: ٣٥٦. والبيتان في ديوانه ١٥٤ وفيه: (وا رحمتا) مكان (يا رحمة)، وهما في مقطوعة من أربعة أبيات.
(61) طبقات فحول الشعراء ١: ٣١ ـ ٣٢. وفي الشعر والشعراء ١: ١٠٤ (وربّ عَبْل خشنٍ لوبته). والغَيْل: الساعد الريّان الممتلئ. (اللسان: غيل). والعَبل: ضخم الذراعين. (المختار: عبل)
(62) الطبقات ١: ٣٢. وفي الشعر والشعراء ١: ١٠٤ لم تنسب.
(63) طبقات فحول الشعراء ١: ٣٢ ـ ٣٣.
(64) عيون الأخبار ٢: ٣١٢، معجم الأدباء ٦: ٨٤ (نقلاً عن العيون). وفي كتاب التعازي للمدائني ١: ٥٢ (احتضر الرجل) مكان (احتضر سيبويه).
(65) تاريخ بغداد ١٢: ١٩٣. وفي صدر البيت الثاني بعض الارباك في الوزن، حاول (محقق التاريخ) أن يعالجه بمدّ لام الفسيل إلى عجز البيت، فأربك البيت كلّه. يرى البحث أنّه لو قرئت (يروى) وكان بالأصل هكذا، بتضعيف الواو، هان الأمر، وأصبح قيام (العروض) بتمام (فعولن) أمراً مقبولاً.
(66) نفسه ٥: ٤٢٦.
(67) معجم الأدباء ٤: ٢٠٤.في طبقات الشعراء٣٨٩ كنيته أبو حكيمة،ولم ترد المقطوعة فيه.
(68) ينظر: نفسه ٤: ٢٠٣.
(69) تاريخ الطبري ٩: ٤٦٩. والبيت في: الكامل في اللغة ٢: ٣٤٥ لصخر بن عمرو بن الشرير (أخي الخنساء) في مقطوعة من خمسة أبيات. والعَير: الحمار. والنزوان: الوثوب (ينظر: اللسان: عير ونزا).
(70) تهذيب الجليس الصالح لابن زكريا ١١٨. وزياد الأعجم، هو زياد بن سُليم العبدي، من شعراء الأموية (ت نحو ١٠٠هـ) (ترجمته في:طبقات فحول الشعراء ٢: ٦٩٣ ـ ٦٩٩)
(71) الأغاني ٨: ٣٠٥. والبيتان ليسا في ديوانه.
(72) ينظر: الأغاني ١٤: ٣٨٠.
(73) ينظر: اللسان:سبب.
(74) الأغاني ١٨: ٣٤٦ (الهيئة المصرية). ومخارق: مولى الرشيد ومغنيه، وأحد أبرز مغنّي المئة العباسية الأولى (ت٢٣١هـ). والبيتان ليسا في ديوانه. وفي الوفيات ١: ٢٢٢ أول البيتين ثاني الأغاني. و (عزاء) مكان (غناء).
(75) الوفيات ١: ٢٢٢. والبيت في ديوانه ٢٣٧.

(76) ينظر: تاريخ بغداد ٨: ١٢٨. والأبيات في ديوانه ١١٥ ـ ١١٦ بنفس الرواية والألفاظ
(77) ينظر: المصدر السابق ٨: ١٢٨
(78) ينظر: جواهر البلاغة لأحمد الهاشمي ٢٩٢.
(79) في الاستعارة يمكن النظر في: دلائل الاعجاز للجرجاني ٣٣٥ وما بعدها، وجواهر البلاغة ٣٠٣ وما بعدها
(80) دلائل الاعجاز ٥٢.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- أساس البلاغة، جار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، دار الكتب المصرية بالقاهرة ـ ١٩٢٢.
- الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (ت٣٥٦هـ)، طبعة تسوماس بالقاهرة ـ د.ت (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية) / تحقيق عبد الكريم الغرباوي ومحمود محمد غنيم، الهيئة المصرية بالقاهرة ـ ١٩٧٠.
- الأمالي، أبو علي القالي البغدادي (ت٣٥٦هـ)، دار الكتب المصرية بالقاهرة ـ ١٩٢٦هـ .
- أميّة بن أبي الصلت ـ حياته وشعره ـ دراسة وتحقيق د. بهجة عبد الغفور الحديثي (ط٢) ، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد ـ ١٩٩١.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (١٠٢٥هـ)، تحقيق عبد الكريم الغرباوي وآخرون، مطابع حكومة الكويت بالكويت ـ ١٩٧٩.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، (ط١)، دار الكتب العلمية ببيروت ـ ١٩٧٧.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط٣)، دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٦.
- تحسين القبيح وتقبيح الحسن، ابو منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، تحقيق شاكر العاشور مؤسسة المطبوعات العربية ببيروت ـ ١٩٨١
- تهذيب الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج المعافى بن زكريا (ت٣٩٠هـ)، تحقيق صالح عثمان اللحام، (ط١)، دار الحسن للنشر بعمان ـ الأردن ـ ٢٠٠٣م.
- جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، مطبعة حجازي بالقاهرة ـ ١٩٥٤.
- خلف الأحمر وما وصل إلينا من شعره ـ جمع وتحقيق ودراسة د. حسام داود خضر الإربلي، مجلة كلية التربية للبنات بجامعة بغداد، مجلد ١٧، العدد٢،سنة ٢٠٠٦م.
- دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، وقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا، منشورات الأرومية بقم ـ ١٩٧٨ (نسخة مصورة عن طبعة دار المعرفة ببيروت)
- ديوان أبي بكر الشبلي (ت٣٣٤هـ)،تحقيق د.كامل مصطفى الشيبي، دار التضامن ببغداد ـ ١٩٦٧
- ديوان أبي تمام (ت٢٣١هـ)، شرح الصولي (ت٣٣٥هـ)، تحقيق د. خلف رشيد نعمان، (ط١)، دار الرشيد للنشر ببغداد ـ ١٩٧٨ ـ ١٩٨٢
- ديوان أبي العتاهية (ت٢١١هـ) بإشراف كرم البستاني، (ط١)، دار صادر ببيروت ـ ١٩٩٨.
- ديوان أبي نواس (ت١٩٨هـ) برواية الصولي (ت٣٣٥هـ)، تحقيق د. بهجت عبد الغفور الحديثي، دار الرسالة ببغداد ـ ١٩٨٠.
- ديوان جرير (جرير بن عطية الخطفي ت ١١١هـ)، دار صادر ـ دار بيروت ببيروت ـ ١٩٦٠.
- ديوان الحطيئة (ت نحو ٣٠هـ)، شرح أبي سعيد السكري (ت٢٧٥هـ)، دار صادر ببيروت ـ ١٩٨١.
- ديوان الحلاج، الحسين بن منصور (ت٣٠٩هـ)، صنعه وأصلحه د. كامل مصطفى الشيبيي، (ط٢)، دار آفاق عربية ببغداد ـ ١٩٨٤.

- ديوان الحماسة، أبو تمام (ت٢٣١هـ)، برواية أبي منور الجواليقي (ت٥٤٠هـ)، تحقيق د. عبد المنعم أحمد صالح، دار الرشيد للنشر ببغداد - ١٩٨٠.
- ديوان العباس بن الأحنف (ت نحو ١٩٤هـ) شرح وضبط د. عمر فاروق الطباع، (ط١) ،شركة دار الأرقم للطباعة والنشر ببيروت - ١٩٧٧.
- ديوان علي بن الجهم (ت٢٤٩هـ)، تحقيق خليل مردم، (ط٢)، لجنة التراث العربي ببيروت - د.ت.
- ديوان الفرزدق، همام بن غالب (ت١١٤هـ) بإشراف كرم البستاني، دار صادر - دار بيروت ببيروت - ١٩٦٠.
- ديوان الهذليين، بإشراف أحمد الزين، الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة - ١٩٦٥ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصري (ت٤٥٣هـ)، بشرح د. زكي مبارك، (ط٤)، دار الجيل ببيروت - ١٩٧٢.
- سنن النسائي، أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ)، دار احياء التراث العربي ببيروت - د.ت.
- السيرة النبوية، ابن هشام (ت٢١٣هـ)، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، (ط٢)، دار الكنوز الأدبية ببيروت - د.ت.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى (جاهلي)، شرح وتحقيق حجر عاصي (ط١) دار الفكر العربي ببيروت - ١٩٩٤.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة (ت نحو ٤٠هـ)، قدم له وشرحه إبراهيم جزيني دار القاموس الحديث ببيروت - د.ت.
- شعر ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) ، صنعة أبي بكر الصولي (ت٣٣٥هـ)، تحقيق د. يونس أحمدالسامرائي، دار الحرية للطباعة ببغداد - ١٩٧٧.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر - ١٣٦٦هـ
- طبقات الشعراء، عبد الله بن المعتز (ت٢٩٦هـ)، تحقيق عبد لستار أحمد فراج، (ط٤) ، دار المعارف بمصر - ١٩٨١.
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ) قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بمصر - ١٩٨٠.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٧هـ)، تقديم خليل شرف الدين، (ط١)، دار ومكتبة الهلال ببيروت - ١٩٨٦
- عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، دار الكتاب العربي ببيروت - د.ت (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية - ١٩٢٥)
- الفلاكة والمفلكون، شهاب الدين أحمد بن علي الدلجي (كان حيّاً ٧٥٢هـ)، مطبعة الآداب بالنجف الأشرف - ١٣٨٥هـ
- فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر - ١٩٥١.
- الكامل في التاريخ، عز الدين بن الأثير (ت٦٣٠هـ)، (ط٧)، دار صادر ببيروت - ٢٠٠٥
- الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، مكتبة المعارف بمصر - د.ت
- كتاب التعازي، أبو الحسن المدائني (ت٢٢٨هـ)، تحقيق ابتسام مرهون الصفار، وبدري محمد فهد، مطبعة النعمان بالنجف الأشرف - ١٩٧١
- كتاب الوزراء والكتاب، ابن عبدوس الجهشياري (ت٣٣١هـ)، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، (ط١)، مطبعة البابي بالقاهرة - ١٩٣٨.
- لسان العرب، ابن مظور (ت٧١١هـ)، (ط١)، دار صادر ببيروت - ٢٠٠٠.

- المحاسن والأضداد، عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية ببيروت - د.ت.
- مختار الصحاح، أبو بكر الرازي (ت٦٦٦هـ)، (ط١)، دار الكتاب العربي ببيروت - ١٩٦٧
- مختصر التاريخ، ظهير الدين ابن الكازروني (ت٦٩٧هـ)، تحقيق د. مصطفى جواد، مطبعة الحكومة ببغداد - ١٩٧٠
- المخصص، ابن سيده الأندلسي (ت٤٥٨هـ)، دار الفكر ببيروت - ١٩٩٥
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين المسعودي (ت٣٤٦هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (ط٥)، دار الفكر ببيروت - ١٩٧٣
- المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (ت٨٥٠هـ)، تحقيق مصطفى محمد الذهبي، دار الحديث بالقاهرة - ٢٠٠٣
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، اعتنى بنسخه وتصحيحه د.س. مرجليوث، (ط٢) ، طبعة هندية بالموسكي بمصر - ١٩٢٣.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، (ط٢)، دار صادر ببيروت - ١٩٩٥
- منصور بن اسماعيل الفقيه - حياته وشعره - د. عبد المحسن فرّاج القحطاني (ط٢)، دار القلم ببيروت - ١٩٨١
- الوجودية ليست فلسفة انسانية، جان كانابا، ترجمة محمد عيتاني، دار بيروت للطباعة ببيروت، ١٩٥٤.
- الوجودية مذهب انساني، جان بول سارتر، ترجمة عبد المنعم حنفي (ط١)، مطبعة الدار المصرية بالقاهرة - ١٩٦٤.
- وصايا العلماء عند حضور الموت، أبو سليمان الربعي (ت٣٧٩هـ)، تحقيق صلاح محمد الخيمي (ط٣)، دار ابن كثير بدمشق وبيروت - ١٩٨٩.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين بن خلكان (ت٦٨١هـ)، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر ببيروت - ١٩٧٣.

Dying poetry until the end of the first Abbasid period (334Hj) Study in the poetry of the last moments in the lives of poets

Asst. Prof. Dr. Husam Daoud Khader Alarbilly
Arabic Dept./ College of Education for Women/ Baghdad university

Abstract:

Dying poetry ,last felt the man to say apriorior improvisation during entry in to the context of the death while going through it, or distracted by the death , before the soul went out the duration of a brief may not exceed the minutes , with out pious or pen or vain , may have been exercised in his daily life, compelled or for the benefit.

The discussion dealt with the meaning of dying, then presented its article with three topics;

First; What was said in accepting the death.

Second; what was said in the reguest fo death.

Third; what was said to ignore the death.

This lesson as well as poetry style andcream and the imeanings and ideas and nages and rhetorical rhythm. To achieve this, adopted solid sources and references of the value of literature, translation, history, ianguage, totaling fivty five asource and areference.